مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 25 عدد: 53 السنة:2021

مذكرات مالك بن نبي بين فن السيرة الذاتية ونضج الفكر الحضاري

Malik bin Nabi's memoirs between the art of autbiography and the maturity of civilized thought

صلاح الدين مبارك حداد[1]

جامعة جيجل

Seddine25@yahoo.com

تاريخ الوصول 2019/07/09 القبول 2020/10/10 النشر على الخط 2021/01/15

Received 09/07/2019 Accepted 10/10/2020 Published online 15/01/2021

ملخص:

يمكن النظر إلى خطاب مذكرات مالك بن نبي الموسومة بـ مذكرات شاهد قرن على أنه خطاب سير ذاتي خصوصا وقد تم تشكيله وفقا للرؤية الفنية لفن السيرة الذاتية. لكن وفي ظل الدوافع التي يمكن أن تنشأ عنها كتابة السيرة الذاتية فإنها تهدف أكثر إلى المقاصد العقلية المنطقية مثل التبرير والشهادة، مما يجعل منها شكلا آخر من فن السيرة هي السيرة الفكرية التي لا تخلو من روح الفن ولمساته الآسرة .

الكلمات المفتاحية : مذكرات ؛ السيرة الذاتية ؛ الحضارة ؛ الخطاب

Abstract

The memories of Malik bin Nabi entitled - memories of a witness of the century - can be considered as an autobiographical discourse, especially they were formed according to the artistic vision of the art of autobiography. But in light of the motives that can lead to the writing of a CV, they are aimed more at logical mental purposes such as justification, testimony and analysis, which makes them another form of self biography which is an intellectual autobiography which is not devoid of the soul of art and its captivating touches.

Key words . memoirs- autobiographie- civilization – discourse

[1] المؤلف المرسل: صلاح الدين مبارك حداد الايميل :Seddine25@yahoo.com

مقدمة :

لقد كتب مالك بن نبي مذكراته التي تقع بصورتها الأصلية المكتملة في أربعة أقسام هي: "الطفل، الطالب، الكاتب، الدفاتر" وليس في قسمي الطفل والطالب فقط على حد التصور السائد، بوصفه شاهدا للقرن حتى عام وفاته في 1973 موثقا العلاقة الارتباطية بين ماضيه وحاضره ورؤاه المستقبلية على الصعيد النفسي والاجتماعي والفكري.

إن مذكرات مالك بن نبي لا تشذ عن المسلك الأساسي لإنتاجه الفكري ومشروع النهضة الذي ينظّر له، فهي لا تخلو أيضا من اتجاهه الفكري العام إلى تحليل مشكلات النهوض الحضاري وأبعاده الاجتماعية والانسانية والفكرية.

تحاول هذه الدراسة أن تضع يدها على قواسم الاشتراك والتلاقي والتماهي فنيا وفكريا بين فن السيرة بعده فعلا تاريخيا لا ينفصل فيه الماضي عن الحاضر والمستقبل، ما يتيح تقديم صورة إنسانية مكتملة عن الشخصية، والنزعة الواضحة في تحليل مالك بن نبي لمشكلات النهوض الحضاري والتي تتسم بالشمولية والارتباط بالبنية الفكرية والسياق الثقافي والاجتماعي والنظرة الواعية إلى تاريخ الأمم الذي يشمل ماضيها وحاضرها ومستقبلها عبر توليفة فنية فكرية يتماهى فيها السرد مع فلسفة التحليل العميق، وذلك من خلال مواقف تحفل بها مذكرات مالك بن نبي

الكلمات المفتاحية : مذكرات ؛ السيرة الذاتية ؛ الحضارة ؛ الخطاب

Key words . memoirs- autobiographie- civilization – discours

المنظور السير ذاتي لخطاب المذكرات

لا شك أن المذكرات ولو بعدّها شكلا من أشكال السيرة الذاتية، فهي تفترق عنها كجنس أدبي ترتبط مضامينه بعناصره الشكلية، " فكاتب المذكرات لا يكتب أدبا بالدرجة الأولى ولكنه يقص تاريخ عصره ومجتمعه من خلال رؤيته وتقويمه للأحداث ولكنه يختلف عن المؤرخ الذي يتعامل مع الحقائق من وجهة نظر موضوعية"[1].

فالسيرة الذاتية يتجه فيها اهتمام الكاتب إلى التركيز على واقعه الذاتي، أما كاتب المذكرات فيُعنى بالأحداث الخارجية من حوله بوصفه فاعلا فيها أو شاهدا يرصدها ويحكم عليها.

ومن هنا " يجب أن نفرق بينهما على أساس استخدام كل منهما للشخصية والأحداث المحيطة بها. فالمذكرات تركز أساسا على الشخصيات و الأحداث في حين تلتزم شخصية الكاتب بالتسجيل والتوضيح لما يدور حولها، أما ما يدور داخلها فيظل في الظل ولذلك تبدو بعض المذكرات وكأنها تسجيل لأحداث تاريخية تصادف أن شهدها كاتبوها. أما السيرة الذاتية الحقيقية فعبارة عن سرد متماسك منطقي لحياة الكاتب مع التركيز على التأملات والانطباعات ذات الأبعاد المختلفة"[2].

ومن المؤلفات التي تحمل هذا العنوان في اللغة العربية مذكرات محمد عبده ومذكرات محمد حسنين هيكل ، ومذكرات شاهد للقرن لمالك بن نبي. وكثير من مذكرات الساسة والقادة التي عادة ما يكتبونها بمنطق التبرير والتنصل من مسؤولية الأحداث السيئة ونسبة الإنجازات إليهم.

---

[1] أحمد بن علي آل مريع، السيرة الذاتية- مقاربة الحد والمفهوم، صامد للنشر والتوزيع، تونس، ص3، 2010،ص63

[2] نبيل راغب، دليل الناقد الأدبي، مكتبة غريب مصر، ص122.

في ضوء هذه التفرقة بين المذكرات والسيرة الذاتية واعتمادا على العقد الأوتوبيغرافي (Autobiographique) أو ميثاق السيرة الذاتية الذي نادى به الناقد الفرنسي فليب لوجون الذي يعتبر السيرة و قياسا عليها المذكرات كأي عمل تعاقدي بين مستهلك ومنتج. وتُستقى مادة العمل وصيغته من عنوان الكتاب أو من مقدمته أو من قرائن أخرى..

في ضوء هذا كله أيسوغ لنا الفصل القطعي الحاد بين مذكرات مالك بن نبي وبين فن السيرة الذاتية؟.

من أشهر تعريفات فن السيرة التي لا تكاد تخلو منها دراسة حول هذا الفن، تعريف فيليب لوجون الذي يعرفها بقوله: " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[1].

يتضح من هذا المفهوم الذي يقيم فن السيرة على ثلاثة عناصر هي: السرد والتركيز على حياة المؤلف، والتطابق بين السارد والشخصية الرئيسية، أن خطاب مذكرات مالك بن نبي يمكن النظر إليه على أنه خطاب سير ذاتي خصوصا وقد تم تشكيله وفقا للرؤية الفنية لفن السيرة الذاتية.

ووفقا لتصنيف"جورج ماي" للدوافع المتنوعة التي يمكن أن تنشأ عنها كتابة السيرة الذاتية حيث قسمها إلى نوعين، كل منهما يرتبط بمجموعة من الأهداف، فالنوع الأول يهدف إلى المقاصد العقلانية المنطقية مثل التبرير والشهادة، أماالنوع الثاني فيضم دوافع أقرب إلى العواطف والانفعالات[2].

وفقا لهذا التصنيف وفي ظل النوع الثاني منه بصفة خاصة يمكن اعتبار مذكرات مالك بن نبي شكلا آخر من السيرة هي السيرة الفكرية.

السيرة الفكرية: المضامين والأبعاد

يمكن حصر المضامين التي تنطوي عليها مذكرات مالك بن نبي في ثلاثة مضامين أساسية هي:

1- **التكوين الفكري لمالك بن نبي**، يبدو من خلال المسار الطويل الذي قطعه مالك بن نبي في حياته الاجتماعية والتعليمية، أنه كان يحمل في نفسه جينات العظمة، والاستعداد الفطري لمواجهة الظروف والاستفادة منها قدر المستطاع، مما أتاح لشخصيته أن تنطبع بصفات علمية، طبعت إنتاجه الفكري، وجعلت منه صاحب منهج متميز في محاكمة مشكلات الحضارة ومعالجتها.

من أبرز الصفات التي كان مالك بن نبي يتصف بها في حياته، حب القراءة ومطالعة كل ما يقع بين يديه من كتب، مناقشة الأفكار وعدم أخذها على علاتها، التفاعل مع الواقع والتفكير في حل مشكلاته ، الإقرار بالخطأ والرجوع عنه إلى جادة الصواب، الإصرار على بلوغ الهدف مهما تكن قسوة الظروف، الطموح العلمي.

وقد استمد الكاتب تكوينه الفكري من مصدرين أساسيين هما:

[1] فيليب لوجون، السيرة الذاتية–الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، نقلا عن أحمد بن علي أل مريع، السيرة الذاتية، مرجع سابق.ص49.

[2] جورج ماي، السيرة الذاتية، تر: محمد القاضي وعبدالله صولة، قرطاج بيت الحكمة، 1992، ص48

- البيئة سواء منها البيئة الجزائرية أو البيئة الفرنسية، ففي البيئة الجزائرية كان لأسرته المحافظة الدور الرئيسي في وسم شخصيته بالأخلاق السامية وتشبعها بالإيمان الصافي، حيث نجده يهدي كتابه " الظاهرة القرآنية " بقوله " إلى روح أمي: إلى أبي: الوالدين اللذين قدما لي في المهد أثمن الهدايا: هدية الإيمان" .

كما كان لمساره التعليمي في قسنطينة وتبسة وفرنسا أثر كبير في بناء شخصيته العلمية وتحديد اتجاهه الفكري.

- القراءة ،حيث دفعه حبه للقراءة منذ الطفولة إلى قراءة كل ما يقع تحت يديه، فكان جم المطالعة في جميع المجالات الأدبية والفكرية والفلسفية والعلمية.

2- **شهادته التوثيقية لمجتمعه وعصره** وما كان يدور فيهما من أحداث ويصطرع من أفكار، فقد عاش الكاتب في فترة شهدت كثيرا من الأحداث العظام والتحولات الجسام في تاريخ البشرية، يكفيه من ذلك أنه عاش في فترة الحرب العالمية الأولى والثانية وما كان يميزها من أطماع استعمارية توسعية على حساب مصالح الشعوب المستعمرة وحقها في الحرية والاستقلال، ولم تسلم الجزائر من هذه الأطماع، فقد كان الاستعمار الفرنسي يحتلها ويفرض عليها إرادته الظالمة.

مما أتاح للكاتب أن يعرف طبيعة الاستعمار عن قرب ويخبر أساليبه في قهر الشعوب وسلبها هويتها الوطنية ويجعلها بذلك فريسة سهلة بين يديه عندها القابلية للاستعمار والبقاء على هامش الحضارة.

ومن ثم التحذير من ويلات الاستعمار والقابلية للاستعمار، والرد العلمي على الاتجاهات التغريبية التي تدعو إلى الارتباط الفكري بالثقافة الغربية وحدها، وبيان تهافتها.

3- نضج وعيه الحضاري الذي اكتسبه من معايشته اللصيقة لأحداث مجتمعه وعصره وبحثه المستمر في مشكلاتهما برؤية علمية متبصرة منفتحة على الخبرات المعرفية المختلفة في الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

صدر عن وعيه هذا في تشخيص أمراض المثقفين وكشف عقم مناهجهم في التعاطي مع قضايا المجتمع، مثل التعالي على المهمات المتواضعة لأنها لا تغذي فيهم نزعة الظهور[1]، وظاهرة الفرار من الواجب بالتظاهر والمظاهرات[2]، الحماس المفرط للتضحية في سبيل قضية نبيلة، لكن تبقى السبيل إلى ذلك غير محددة ، والوسيلة قاصرة[3].

الأبعاد

يمكن إجمال هذه الأبعاد في بعدين أساسيين هما البعد التاريخي الحضاري وذلك بالنظر إلى أن هذه المذكرات رغم أن مادتها تاريخية في الأساس إلا أن الكاتب استطاع أن يجعل هذه المادة محكا لتفكيره في كثير من المشكلات الحضارية ومظاهرها الاجتماعية عن طريق التحليل والتفسير، والكشف عن أنماطها وقوانينها الاجتماعية.

والبعد النسقي الفني الذي يجعل من هذه المذكرات تاريخا وفكرا وفنا في وقت واحد، حيث تؤدي الصنعة الفنية دورها في العرض والأسلبة.

[1] مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن،القسم الأول والثاني، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط2، 1984، ص395

[2] المصدر نفسه، ص385.

[3] المصدر نفسه، ص186.

المقومات السردية للمذكرات

الأحداث

تصور هذه المذكرات بواسطة السرد المباشر والترتيب الزمني الكرونولوجي شطرا عظيما من حياة مالك بن نبي، ففي الفترة الأولى من حياته، تصور الوضع الاجتماعي الثقافي لأسرته، وطبيعة نشأته والمدن التي عاش فيها مثل تبسة التي تحدث عن المراحل التي مرت بها في خضم الأحداث التي كانت تعصف بالمجتمع الجزائري أثناء فترة الاستعمار الفرنسي.

وقسنطينة التي مرت هي الأخرى بنفس المراحل التي مرت بها تبسة، إلا أن الوجود السابق للاستعمار فيها جعلها تنتقل إلى المرحلة الثانية، فحين سافر إليها مالك بن نبي وأقام فيها سنوات من عمره كانت تشهد تحولات كبيرة في المجالين الاجتماعي والاقتصادي.

دونما إغفال للحديث عن الأماكن التي تلقى فيها تعليمه الأول والعلاقات الإنسانية التي كونها مع مجموعة من الأصدقاء.

ترصد هذه المذكرات معاناة الكاتب في محاولة الحصول على عمل داخل الوطن وخارجه في تلك الفترة، ثم رحلاته الداخلية إلى الريف التبسي، وإلى مدينة آفلو التي عين في محكمتها عدلا بعد متاعب عدة، ونقله بعد ذلك بطلب منه إلى شلغوم العيد.

أما في الفترة الثانية فتصور المذكرات رحلته إلى فرنسا للعمل والدراسة، ثم الزواج والأعمال التي مارسها في فرنسا وملابسات انخراطه في النوادي الثقافية.

والمحاولات الفاشلة التي قام بها للهجرة إلى السعودية ومصر وأفغانستان وألبانيا.

الشخصيات

شخصية الكاتب

وهي الشخصية المحورية الساردة التي تبسط رؤيتها السردية على المكان والزمان وجميع الشخصيات الثانوية الأخرى التي تنجذب نحوها وتتحرك في ظلها.

تبدو هذه الشخصية على المتن السردي للمذكرات على قدر كبير من الإرادة والتصميم من أجل النهوض بالرسالة الفكرية والإصلاحية التي نذرت نفسها لها منذ اقتنعت بضرورة تبليغها، فالكاتب على الرغم من التحديات والصعاب التي واجهته في حياته المليئة بالمحن لم تلن له قناة ولم يلق حمل الرسالة من على كاهله، فقد كان يصيبه الوهن ويملك اليأس عليه نفسه أحيانا بسبب حياته الشاقة، لكن سرعان ما كان يملأ قلبه الإيمان بجدوى رسالته وضرورة إنفاذها، فتزداد همته صلابة على جادة الطريق التي يسلكها غير عابئ بالأشواك المزروعة فيها.

ولعل تكوينه العلمي أن يكون له كبير الأثر في ذلك، فقد تخرج مهندسا كهربائيا في جامعات فرنسا، وإن لم يتخذ هذا الاختصاص مهنة له طيلة حياته، وعندما سئل عن سبب ذلك قال: " وجدت أمتي تحتاجني مفكرا بأفضل مما تحتاجني مهندسا".

كما يمكن أن يعود ذلك أيضا إلى حدة الطبع التي بدأت تظهر في بعض تصرفاته مبكرا عندما كان طالبا على مقاعد الدراسة، قال في مذكراته : " كان تدهور وسطي يأخذ بتلابيبي ويبعث الحزن والأسى في نفسي من غير أن أفهم أسبابه الاجتماعية ولا عواقبه الخلقية. وفي هذا الوسط الذي يعتريه التغيير والتغير شرعت بعض الملامح والسمات تظهر على طبعي فكنت أجاهر

بأفكاري بصراحة وكنت أعلنها بسخرية فيها بعض القسوة أحيانا، وأنا أعرف الآن أن هذه السمة في طبعي شيئ جوهري في كياني وبهذا يمكن أن تشرح كثيرا من الأشياء في حياتي"[1].

مع ذلك كان يرجع إلى الحق متى تبين له خطأه، كما في موقفه من ابن باديس الذي كان في نظره لا يمثل الإصلاح، لأنه لم يكن قد جالسه وتلقى على يديه، لكنه بعد ذلك يقر بأنه كان مخطئا في هذا الموقف قائلا: "لم أعترف بخطئي حول هذه النقطة إلا بعد ربع قرن من الزمان، حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع. حينئذ تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي"[2].

ويستقر في أعماقه قلق دائم ربما مبعثه الحياة القاسية التي عاشها في فرنسا، حيث كانت تتعرض دائما مساعيه الدائبة من أجل الحصول على عمل للفشل بفعل فاعل مستتر.

مما كان يثير في نفسه سؤالا متكررا، مِؤداه: ماذا أصنع؟. لكن هذا القلق في شخصيته يقابله إيمانه الراسخ الذي يهدئ من روعه، بل يجعله يثور حد الغضب ضد المساس بمقدسات المسلمين، وقد جاء في مذكراته أنه لفت نظره ذات يوم لافتة معلقة على جدران إحدى العمارات في باريس مكتوب عليها شتائم موجهة إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فاستشاط غضبا شديدا، ودعا الله أن يخسف الأرض بهؤلاء الكفرة.

الشخصيات الثانوية

هذه الشخصيات تشمل في المذكرات تقريبا كل درجات القرابة مثل الأب والأم والجد والجدة والأخت والخال والأعمام والأصهار، وقد خص الكاتب الأقرب منهم وهم والداه بنصيب وافر من العناية السردية، مما ينم عن شدة تعلقه بهما طوال حياتهما حتى وهو في مهجره الذي طال به مقامه.

كما تشمل أيضا كل الطبقات الاجتماعية سواء في تبسة أوقسنطينة أوباريس، وقد أمكنه أن يحدد القسمات النفسية لبعض هذه الشخصيات التي التقى بها في حياته مثل شخصيات هؤلاء المدرسين الذين درّسوا له في الجزائر وفرنسا، وذلك بحكم معايشته لهم طويلا.

أوطبقة هؤلاء المثقفين والعلماء سواء منهم الذين احتك بهم وطالت صحبته لهم، أو الذين التقى بهم لقاء عارضا، فكان ينقد مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية والإصلاحية.

أما الشخصيات العادية التي تمر من حوله مرا سريعا فكان يصفها وصفا خارجيا كما في وصفه لشخصية بوعبريط قائلا: " لم يكن بوعبريط هذا مالكا لمقهى المدرسة، إنما كان قائما على شؤونه...لقد كان بوعبريط وجها من وجوه قسنطينة القديمة.إنه وجه شعبي يسهم في ذكريات القسنطينيين الشيوخ التي تتحدث عن تقاليد المدينة ما هو حي وما اعتراه الأفول"[3].

[1] المصدر نفسه، ص120- 121.
[2] المصدر نفسه، ص131.
[3] المصدر نفسه، ص60-61.

المكان

صلة الكاتب الواعية بالمكان بدأت أول ما بدأت من خلال صلته بمدينة قسنطينة التي تعد مسقط رأسه ومدرج بواكير طفولته، ولم يرجع منها إلى تبسة حيث يقيم والداه إلا بعد أن بلغ السادسة من عمره.

يصور الكاتب علاقته الدافئة الواعدة بقسنطينة بعدما غادرها عائدا إلى تبسة "فعندما عدت على عائلتي في تبسة عدت إليهم وقد ارتسمت في نفسي انطباعات واضحة خلال إقامتي في قسنطينة عند عمي وزوجه، ولعل فقداني لما اعتدت عليه في مدينة الباي كان يزيد في تأثير تلك المدينة على ذهني، ولهذا فقد ظلت قسنطينة تستقطب تفكيري طيلة سنوات طفولتي."[1].

وظل الكاتب يجدد صلته الواعية بقسنطينة، في كل مرة يزورها، ويصور شعوره في إحدى تلك الزيارات التي تركت في نفسه أثرا قويا بقوله " ومجمل القول أنه يخيل إلي أن فلاحا صغيرا يصل من ريفه إلى باريس ليلا لا يمكن أن يكون انطباعات مختلفة عن انطباعاتي في تلك اللحظة"[2].

أما تبسة فقد شهدت نشأته الأولى وكان يعود إليها من قسنطينة لقضاء عطله المدرسية رفقة والديه، وكان يشده إليها في بداية صلته بها بساطة الحياة فيها إلى درجة البداوة، إذ كانت ملامح الفطرة واضحة في جميع معالم المدينة وعاداتها حتى في ألعاب الأطفال التي" تعتمد على مزيد من القسوة والصلابة المتأثرة بالتقاليد المحلية وبعضها كان أحيانا يقترب من السحر والشعوذة"[3].

ثم صار الكاتب مشغولا بالأفكار الإصلاحية التي ظهرت تترى فيها محدثة أثرا كبيرا في نسخ الكثير من العادات والتقاليد بالرغم من تنافرها أوعدم التزامها بمنهج واحد أحيانا، وقد كان لمالك دور في ترشيد وتسديد خطى هذه الأفكار .

ثم جاءت رحلته إلى فرنسا التي أتاحت له أن يتعرف على المناخ الثقافي والسياسي في باريس التي شرع بعد وصوله إليها يكتشفها وينفتح على آفاقها الرحبة، فاكتشف وحدة الشبان الباريسيين التي انتسب إليها، وأصبح أحد أعضائها النشطين.

كما عقد صلته بالحي اللاتيني الذي كان ينفر في أول الأمر من سكناه.

وكان الحي آنذاك ميدانا للصراع بين الطلبة الذين يدعون إلى الوحدة بين أقطار المغرب العربي... وبين الطلبة المعارضين الممالئين للاستعمار[4] .

يقول الكاتب فدعوت في الحي اللاتيني للإصلاح والوهابية والوحدة المغربية أي للشعارات المختلفة التي كانت تعطي معنى واحدا: الإسلام.[5]

وقد عقد الكاتب أيضا صلته الفكرية الواعية بأمكنة أخرى، مثل القاهرة التي أقام فيها من سنة 1956 إلى 1963، وهي السنة التي شهدت عودته إلى الجزائر يحمل هموم الوطن والمسلمين جميعا إلى أن وافته المنية عام 1973.

---

[1] المصدر نفسه، ص20.

[2] المصدر نفسه، ص39.

[3] المصدر نفسه، ص186.

[4] المصدر نفسه، ص 41- 42.

[5] المصدر نفسه، ص42.

الزمان تنقسم مذكرات مالك بن نبي كما سبقت الإشارة آنفا إلى أربعة أقسام هي الطفل(1905-1930)، والطالب(1930- 1939)، والكاتب، والدفاتر،أي أنها تغطي مجمل حياته، وإن كنا قد اجتزءنا هنا بدراسة القسم الأول والثاني فقط من هذه المذكرات.

تخضع أحداث المذكرات –كما قلنا سابقا- لآلية السرد الكرونولوجي التعاقبي الذي أتاح تكوين صورة متكاملة عن حياة الكاتب،وتفاعلها مع تحديات ورهانات المحيط من حولها.

فالخط الزمني لأحداث المذكرات يبدأ أصلا من البداية المصدرية أي من بداية وعي الشخصية الساردة بميلادها ووجودها على مسرح الحياة صعودا نحو المسارات التي خطتها والمآلات التي صارت إليها في خضم تفاعلها مع نواتج وتحديات زمنها العصيب.

فمالك بن نبي لم يكن منغلقا على زمنية المرحلة العمرية المفروضة عليه قسرا، بل كان يواكبها ويتجاوزها في آن واحد، وهذا ما تؤكده شهادته على العصر التي لا تنحبس ضمن راهنية حدودها التاريخية، وإنما تتجاوز ذلك إلى التأصيل والتحديث والاستشراف.

بنية الخطاب السير ذاتي في المذكرات

تتعالق مذكرات مالك بن نبي-كما بينا سابقا- مع السيرة الذاتية الفكرية، فهي تعد نموذجا راقيا لسيرة مفكر رسالي ظل يحمل في عقله ووجدانه هموم النهوض الحضاري للمجتمعات العربية والإسلامية، حتى وفاته عام 1973.

يعرف عبد السلام المسدي السيرة الذاتية بوصفها: " جنسا أدبيا ينطلق من إطار اهتمام الإنسان بسيرته الشخصية تحمل في طياتها ضربين من الازدواج: تراكب غرض ظاهر مع غرض باطن من جهة، ثم تظافر استقراء موضوعي مع تسويغ ذاتي".[1]

على هذا نجد الصنعة السردية للمذكرات تنهض أساسا على المؤالفة والمراوحة بين المسوغ الذاتي المتصل بالحياة الشخصية الفردية، والاستقراء الموضوعي التحليلي للحوادث والقضايا الكبرى المثارة في محيط الشخصية والمؤرقة لها.

صحيح أن المتن السردي لهذه المذكرات يقوم على الحكي الاسترجاعي الاستذكاري رجوعا من الحاضر إلى الماضي، وذلك باستخدام ضمير المتكلم الذي يجعل حضور الأنا حضورا مركزيا طاغيا، إلا أنه من الواضح أن حركة السيرورة الزمنية التعاقبية لمفاصل هذا المتن لا تنكفئ على تفاصيل الحياة الشخصية للذات الساردة فقط، وإنما نجدها تتفاعل مع كل التحولات والأحداث التي تجري على مسرح الحياة العامة.

وبذلك يمتزج في هذه المذكرات مسوغان: مسوغ ذاتي داخلي، ومسوغ موضوعي خارجي، وحينئذ "يمكن حصر وظائف الذات الساردة في التوثيق والتأريخ والتصوير والتعبير والتنبيه"[2]، ويمكن أن نضيف هنا أيضا وظائف التشخيص و التحليل والتفسير واستشراف المستقبل.

يتقاطع في المذكرات سيل عارم من الأحداث التاريخية الوطنية والعالمية مع الأحداث الخاصة للكاتب، فمالك بن نبي قد عاش في مرحلة تاريخية شهدت تحولات سياسية واجتماعية وثقافية حاسمة في تاريخ الشعوب العربية والإسلامية والغربية، فقد عاش أحداث

[1] النقد والحداثة، عبد السلام المسدي، دار الطليعة بيروت، لبنان،ط1، 1983، ص144.

[2] جميل الحمداوي، فن السيرة الذاتية في الأدب العربي، منشورات المعارف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2013، ص25

الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، كما نشأ في ظل هيمنة استعمارية ظالمة كانت تعمل بلا هوادة على فصل الشعب الجزائري عن ثوابته الوطنية، ومسخ هويته الحضارية، كما شهد الإرهاصات الأولى لانتفاضة هذا الشعب الأبي في وجه المستعمر، وما كان يصيبه من عثرات سرعان ما كان ينهض منها ليواصل المسير نحو الثورة المنشودة.

وقد جعله هذا الزخم الثرّ من الأحداث إبان تلك المرحلة التاريخية يصرح في بداية مذكراته قائلا: "هكذا إذن فقد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد، حينما ولدت في تلك الفترة ".[1]

ويقول في موضع آخر" إن من ولد بالجزائر سنة 1905 يكون قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي الممثل في أواخر شهوده وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه. وعلى هذا قد كان لي حين ولدت تلك السنة الحظ الممتاز الذي يتيح لي أن أقوم بدور الشاهد على تلك الحقبة من الزمان "[2].

وعلى ذلك أطلق مالك بن نبي على مذكراته عنوان" **مذكرات شاهد للقرن**".

من هنا لم يكن غريبا أن تنهض الرؤية السردية في المذكرات على التقاطع المفصلي بين الحياة الشخصية للكاتب بكل ما يلابسها من هموم نفسية واجتماعية وفكرية، وكثير من هذه الأحداث سواء في سياقها السردي أو في سياق مستقل.

من صور ذلك أن الكاتب بعدما رجع ذات يوم من تبسة إلى قسنطينة حيث يتابع دراسته الثانوية يقول:" في قسنطينة عدت للاتصال بالحقيقة الجزائرية عن طريق وجهها الآخر أعني المواجهة الأقسى للنظام الاستعماري. فالجالية الأوربية المتزايدة يوما بعد يوم وزينة الناس وملابسهم ومظهر الشوارع الرئسية وثكنة القصبة وأولى عربات الترولليي باس، هذه كلها مظاهر تطبع في النفس الوجود الاستعماري.ومن ناحية أخرى فقد تركت في النفس التبسية ألما أورثه إياها امتياز بمنح سبعة آلاف هكتار في دوار المريج، أي نصف مساحة الدوار لرجل أوربي بالإضافة إلى حق في الري يستنزف ثلاثة أرباع احتياطي المياه، فقد كان هذا الأوروبي صهر صاحب متجرBaza de globe الذي يمتاز بشهرة كبرى في قسنطينة.

وفي مدينة سيرتا القديمة ظهر الوجود الاستعماري ظهورا أعنف مما كان في تبسة وفي مقهى بن يمينة كان الناس يعلقون على آخر مراحل الصراع بين خالد ومورينو، وهو حوار بلغ ذروته في جريدة الجمهوري التي أخذت تنكر على خالد لقب الأمارة، أماالحديث في صحيفة الشؤون العامة لقسنطينة فقد كان يجري الحوار بصورة مكشوفة حول حرب الريف وأضحى اسم الأمير عبد الكريم يشار إليه بوضوح"[3].

وقد استطاع الكاتب أحيانا "تذويت" الحدث المسرود، وذلك بتحويله من حدث تاريخي عام إلى حدث ذاتي خاص، فقد كان يجاري أقرانه على وجه آخر في تأوّل أحلامهم التي يرونها في المنام بما يتفق مع نصر مؤزر لابد أن ينتهي إليه الأمير عبد الكريم " لقد كانت لي أحلامي أيضا وكنت أفسرها وفقا لرمز خاص يمكن لي أن أنسبه إلى تربيتي البيتية الدينية وكان تفسيرها في غير صالح

[1] المذكرات، مصدر سابق، ص15

[2] مجلة الثقافة الجزائرية، ع38، 1973.

[3] المذكرات، ص126- 127

الريفيين.ولكن الحلم ما كان له أن يغير الحقيقة في ناظري فالريفييون كانوا أسودا يكافحون وحشا يفترسنا جميعا وبطولة الريفيين كانت تثأر لشعب لا يستطيع أن يثأر لنفسه"[1].

كذلك كثيرا ما يحيل الكاتب –في سياق منفصل عن اطرادية السرد– على الأحداث التاريخية اللافتة، فيبقى الحدث بذلك حبيس مجاله التاريخي المصمت معزولا عن البناء الفني للسيرة.

ومن هذا القبيل أن الكاتب بعدما تحدث عن بعض مطالعاته في الصحف ينتقل مباشرة إلى الحديث عن الأوضاع في أوروبا" في أوروبا كانت جمهورية ڤيمر تلفظ أنفاسها تحت طعنات القديسة (سانت وين) هذه المنظمة الوطنية الإرهابية الألمانية التي كانت تسعى لتخليص ألمانيا من الحكم الذي فرضته عليها معاهدة فرساي. وفي قري صغيرة في هولندا كان الإمبراطور (غليوم الثاني) الهارب من بلاده يمضي أيامه في نشر الخشب، بينما السلطان(عبد الحميد) آخر خلفاء بني عثمان يقضي أيامه مستشفيا من مرض الروماتيزم في المدن الأوربية الحارة...كان لينين يثبت دعائم نظامه في موسكو بينما كان(ويغان) يعود لفرنسا في جنيف كانوا يحتفلون بتأسيس عصبة الأمم، وفي باريس وضعوا الحجر الأساس لذلك المسجد الذي سيصبح فيما بعد إقطاعا لـ(بن غبريط) الذي قام بجولة في بلدان العالم الإسلامي جامعا الأموال الضرورية لبنائه"[2].

لعل من الأشكال الشائعة في بناء السيرة الذاتية الشكل التفسيري التحليلي" الذي يعتني فيه المؤلف بتحليل الأحداث وتفسيرها تفسيرا منطقيا"[3]. وقد استعان مالك بن نبي بهذا الشكل في كتابة سيرته الذاتية.

ولما كان مالك بن نبي المفكر الإصلاحي المجدد مسكونا طوال حياته الفكرية بهموم الاستقلال وتحرير الإنسان من عقدة الدونية الناتجة عن القابلية للاستعمار، وبناء الفرد أولا باعتباره أساس أي مشروع حضاري لتأسيس مجتمع تقوم فيه العلاقات الاجتماعية على القيم المتولدة من ثقافة الأمة، لا بالاعتماد على قيم وافدة يتم استقبالها من هذه الجهة أو تلك، فقد اتسم منهجه التكاملي في تحليل مشكلات الحضارة بالشمولية المستوعبة لحركة البناء الحضاري في كل أبعادها المرتبطة بالتاريخ والماضي والمستقبل.

هذا المنهج البنّابي تنشدّ إليه بصورة واضحة كثير من المواقف التي وقفها الكاتب في مذكراته محللا ومفسرا الأحداث التي أحاطت بحياته منذ كان طالبا إلى أن أصبح كاتبا.

ففي المراحل الأولى لتعليمه اكتشف قائلا: " لقد بدأ الشرق القديم منه والحديث يستهويني بأمجاده ومآسيه وكان الحديث عنه يبكيني أو يبهرني إنما في الحالات جميعها يشدني إلى شيئ خبيئ في نفسي بدأت أدركه في شيئ من الصعوبة. لقد استطاعت الدروس ذاتها خلصة مع أساتذتنا العرب أن تنمي فينا هذه الروح وتغذيها وكنا نجد شيئا ما أكثر لدى الشيخ (مولود بن موهوب) الأستاذ في المدرسة وممفتي المدينة اقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر الذي غرسته في نفسه دراسته على يد معلمه الشيخ(عبد القادر المجاوي) وقد تولى هو نقل هذه الغرسة إلى تلك الأجيال من المدرسيين وكنت منهم وقد أينعت ثمارها في الحركة الإصلاحية

[1] المصدر نفسه، ص127

[2] المصدرنفسه، ص94

[3] تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2002، ص82

الناشئة في الجزائر. كان هناك اتجاه عام لرد هذه الحركة إلى أصول شرقية حديثة كالتي أبدعها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ولكن كان يعيبها أنها لا تأحذ باعتبارها التقاليد المحلية."[1].

هذا المنهج نجد أثره حتى في موقفه النفسي من عالم الأشياء التي كان قد ألفها، وإذا بصورتها المألوفة عنده قد أصابها التغيير بعدئذ.فقد عاد بعد سنوات إلى منزل خالته بهيجة الذي أقام به صبيا، فوجد محتوياته قد تبدلت " في ذلك البيت المتواضع استعدت ذكريات قديمة فيها شيئ من الورع فداخل هذا المنزل القسنطيني مع محتوياته المادية التي لا قيمة لها يتحدث مع ذلك عن روح ثقافة بروح حضارة لا شك متهدمة كمنزل خالتي بهية إنما هذه الأشياء تحمل على الرغم من بلاها شهادة تثير الحنين إلى ماض ولى ووعد غامض يتجه نحو المستقبل"[2] .

وليس هذا ببعيد عن تقسيمه للدورة الحضارية التي تمر بها الحضارات إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة الإقلاع، ومرحلة الازدهار ومرحلة الانحطاط الحضاري.

و"في قسنطينة كان(بن يمينة) الابن قد أدخل المزيد من التغييرات في مقهاه...فأضحى مثالا تحتذي به باقي المقاهي التي أخذت تنزع حصرها من الأرض لتستبدل بها الكراسي والطاولات الحديثة مجبرة زبائنها القدماء على الانكفاء نحو مقاه متخلفة يجدون فيها بغيتهم من الدومينو والبصاق تحت الحصر. لقد كان ذلك بداية لمرحلة من التغيرات النفسية والاجتماعية التي ستسمى فيما بعد(النهضة)"[3]

أثناء دراسته بباريس كانت "الحركة الوطنية تطمح إلى تحقيق أهداف سامية دون أن ترسم خطتها ودون أن تحدد وسائلها فأصبحت تتطور في جو من الفوضى لا يصلح إلا لمن يعمل من أجل مصلحته، لذلك لم يكن لحديث (الكاتب)مع الطلبة حتى يلفت نظرهم إلى مشكلات التغيير النفسي والاجتماعي الأساسية التي لا تتكون بدونها دولة، أي أثر عملي...لأنهم شرعوا في امتطاء الحزب المصالي من أجل الوصول إلى مآربهم أو إلى الزعامة"[4].

لا تخلو المذكرات بالإضافة إلى التفسير والتحليل من الوصف والتقرير، حيث يعرض الكاتب الأحداث كما شاهدها أو تنامت إلى سمعه دون أن يعطي رأيه فيها ، ويتجلى ذلك بوضوح في تلك الشهادات التوثيقية الإخبارية التي ينقلها عن الفترة التي عاش فيها سواء ما يتصل منها بأوضاع المجتمع الجزائري إبان فترة الاحتلال الفرنسي، أو ما تحمله الأنباء حول أحداث الحرب العالمية الأولى والثانية، أو في وصفه للشخصيات والأمكنة التي عرفها عبر مراحل حياته المختلفة، لا سيما وهي حياة نامية حافلة بعديد التجارب والخبرات والمشاهدات.

غير أن هذه المذكرات تأتي على الأغلب ممتزجة بأحاسيسه ورؤاه وأفكاره،"فتَحْتَ عنوان «ناصر يقلب الصفحة» كَتَبَ في مفكرته وهو ما زال في طريقه إلى وطنه في 1963/7/29 تعليقاً على اتخاذ جمهورية مصر العربية، قراراً بوجوب حصول الرعايا العراقيين

[1] المذكرات، ص64-65.
[2] المذكرات، ص84.
[3] المصدر نفسه، 104.
[4] المصدر نفسه، ص107

والسوريين والأردنيين والسعوديين على تأشيرة دخول إلى مصر، إعلاناً عن سوء العلاقة بين هذه الدول التي سوف تلاقي الموقف بموقف مماثل، فكتب في مفكرته:

إن الرئيس عبد الناصر يعتبر رجل الدولة العربية الوحيد الذي يكتب بيده التاريخ العربي ظاهراً وتبقى اليد الخفية التي تكتب التاريخ، إنها يد الاستعمار، وهنا في هذا الموقف يحقق الاستعمار موضوعه الأول في قرار مصر أما موضوعه الثاني فهو الذي تقابله الدول العربية المعنية بقرار مماثل، وهكذا، فإن دولاب التاريخ يدور في الفراغ في سائر هذه البلاد منذ سنين عدة، وهو يبدو لي سِمة المرحلة المقبلة في «مسيرة الستينات» لسائر البلاد العربية الغارقة في الفراغ بسبب شخصانية حكامها أو خيانتهم، وهكذا يبحثون دائماً عن خطة جديدة للخروج من هذا الفراغ يثيرون فيها بواعث مرحلة جديدة، ولكن أين هي الفكرة؟ هل هي الشيوعية ثورة تفرض من الخارج؟ أم هي فكرة أخرى سوف تفرض ثورة من الداخل. أعتقد أنني أرى كل أهمية لهذا السؤال الأخير، ولكنني أترك للزمن أن يجيب عنه."[1].

تقوم هذه المذكرات على خطية السرد التعاقبي المتسلسل الذي يعتمد على تذكر الأحداث تبعا لتسلسلها الزمني، فيما يسمى بالسرد الاستذكاري عبر استرجاع شريط ذكريات الماضي، لكن الكاتب لا يعدم أيضا استخدام تقنية "السرد الاستشرافي الذي يثير فيه المؤلف أحداثا سابقة لسياقها الزمني، أو يمكن حدوثها"[2].

ومن قبيل هذا النمط السردي الذي من شأنه أن يقطع خطية الاطراد في نقل الأحداث حديث الكاتب عن الأثر الذي خلفه في نفسه بعد ثلاثين سنة حدث كانت ترويه له جدته في طفولته المبكرة".

وهنا أضيف أن هذه المرأة كانت بارعة في قص الحكايات إذ كانت تشدنا إليها ونحن متحلقون حولها. كانت هذه مدرستي الأولى فيها تكونت مداركي..فبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ حينما كنت طالبا في باريس قمت ذات يوم مع عدد من رفاقي في الكلية بعملية استبطان وكان على كل منا أن يجيب على السؤال التالي: ما هو أهم حدث في حياتك ولمن تنسبه ؟ لقد أحيا هذا السؤال في نفسي ذكريات قديمة"[3].

وبصدد حديثه أيضا عن الحزن الذي استولى عليه عند إعلان نتائج الامتحان التي كانت سلبية بالنسبة إليه في المراحل الأولى من تعليمه، وتحليله لشدة تأثره بالحدث الذي يتلقاه بانفعالية مفرطة تستطيع أن تنتزع منه دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ، نجده يقفز صعودا نحو المستقبل، فيحكي أنه " مرة في حزيران(يونيو) من عام 1940 وفي كهف لجأنا إليه في Dreux حين دخل الجيش الألماني تواريت حتى أخفي دموعي لقد بكيت هزيمة الجيش الفرنسي وفي ذلك اليوم رأيت في ذاتي عنصرا كشف كل التعقيد في ذات المسلم"[4].

تستند المذكرات إلى المنظور السردي الداخلي من خلال استخدام ضمير المتكلم، ما يجعل السارد والشخصية على مستوى واحد من معرفة الأحداث وإنجازها ونقلها من وجهة نظر ذاتية بواسطة التحليل والتفسير وإبداء المواقف النفسية على نحو ما بيناه سابقا.

---

[1] مالك بن نبي العائد إلى الجزائر، عمر مسقاوي، موقع مالك بن نبي على شبكة الإنترنت.www.binnabi.net

[2] تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، مرجع سابق،ص135.

[3] المذكرات، ص16.

[4] المصدر نفسه، ص137.

كما يخضع الترتيب الزمني للمذكرات لايقاع سريع نوعا ما، وذلك بإعمال آلية التقليص الزمني والتلخيص الحدثي.

ويمكن تلمس ذلك بوضوح في تلك الفجوات السردية التي تفصل بين وجود الكاتب في تبسة وانغماسه في تفاصيل حياتها اليومية مع أفراد أسرته وأصدقائه، وعودته بعد ذلك دون سابق ترتيب لهذا الأمر إلى قسنطينة، حيث نجد الرقعة الزمنية لحدث العودة تنحسر كثيرا محدثة هذه الفجوات، لكن الكاتب يسد هذه الفجوات بحدث آخر يتكرر في متن المذكرات، وهو سكب أمه أو إحدى أخواته ماء العودة على رجليه في كل مرة يسافر فيها من تبسة إلى قسنطينة على أمل عودته من جديد.

مثال ذلك " ذات صباح تركت تبسة غارقة في اضطرابها الفكري وتلقيت مرة أخرى على رجلي(ماء العودة)"[1].

ومن صور التلخيص الحدثي المبثوثة في المذكرات وصفه لأحوال الطلبة في فترة إجراء الامتحانات في الثانوية التي كان يدرس بها في قسنطينة، حيث يقول" ولأننا أصبحنا مرة أخرى في فترة ليالي الامتحان فعلى كل طالب في المدرسة أن يحتفظ بمنحته الدراسية، وهكذا استعادت المدرسة جمهورها وعاد هؤلاء لوضع وريقاتهم الصفراء فوق أنوفهم كما استعادوا الأرق والنظرات المحمومة وهيئاتهم الهزيلة المهملة وقمصانهم المجعدة وياقاتهم المتسخة"[2].

ويكاد ينعدم الحوار في المذكرات تماما إلا في موقف واحد أو موقفين، بينما يطغى على النص أسلوب السرد المباشر الذي يكاد يخلو من التصوير الأدبي، إلا في تلك المواطن التي يصف فيها بعض الأماكن والمشاهد الطبيعية التي تسحره وتأسر لبه.

أما أسلوبه في نقل شهاداته فيتسم بالدقة والتحديد في انتقاء الألفاظ والعبارات، شأنه في جميع كتبه الأخرى.

خاتمة

نعود فنقرر مجددا أن مذكرات مالك بن نبي سيرة ذاتية فكرية تمتزج فيها الشهادة التاريخية المرجعية بالإفضاءات الذاتية المشبعة بروح الفن المحملة بالرؤية العلمية المنهجية النافذة والفكر الحضاري الناضج الواعي، حيث تتداخل فيها عناصر الإخبار والوصف والتحليل والتفسير وإبداء المواقف النفسية عبر توليفة سردية محكمة الصوغ تحقق للمتلقي شيئا كثيرا من المتعة والفائدة معا .

كما تكشف عن مسار حياة كفاح شخصية متطور ، متنام ، متعاظم هو ما عركها وأعدّها للقيام بدور منظّر الفكر الحضاري بامتياز. هذه الشخصية ولو صدرت هذه المذكرات غفلا من اسم مؤلفها لا يمكن أن تكون سوى شخصية مالك بن نبي المفكر الذي لا يخلو هنا من الحسّ المرهف للفنان الأديب.

المراجع

1 - أحمد بن علي آل مريع، السيرة الذاتية- مقاربة الحد والمفهوم، صامد للنشر والتوزيع، تونس، 2010.
2 - نبيل راغب، دليل الناقد الأدبي، مكتبة غريب مصر.
3 - جورج ماي، السيرة الذاتية، تر: محمد القاضي وعبدالله صولة، قرطاج بيت الحكمة، 1992.
4 - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن،القسم الأول والثاني، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط2
5 - النقد والحداثة، عبد السلام المسدي، دار الطليعة بيروت، لبنان،ط1.

[1] مصدر نفسه، ص126.
[2] المصدر نفسه، ص96.

6 - جميل الحمداوي، فن السيرة الذاتية في الأدب العربي، منشورات المعارف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2013.

7 - تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2002.